International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (6)
IJESA
June 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (6)

تأثير المُخاطَبِ في صناعة الكلام عند علماء العربية القدماء

ناجح سالم موسى المهنا
أستاذ بقسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة البصرة، العراق
najahalmihana@yahoo.com

المقدِّمة

إنَّ مصطلح صناعة الكلام مصطلح واسع الدلالة، إذ أنّه يعني التأليف بأوسع معانيه فنحن مع مصطلح صناعة الكلام نكون نتحدث عن البيان لدى الخطيب والشاعر والمترسل والكاتب، الموضوع متشعب وفيه كلام طويل، موجود في مراجع وكتب البيان العربية القديمة كالبيان والتبيين للجاحظ، وكتاب الصناعتين للعسكري، وكتاب إحكام صنعة الكلام للكلاعي، وكتاب صناعة الكتّاب للنحاس، وغيرها كثير، ونحاول في هذه الورقة تسليط الضوء على مفصل مهم من مفاصل موضوع صناعة الكلام هو أثر المُخاطَب فيه، كما أوضحه علماء العربية القدامى المهتمون بدراسة البيان العربي، فللمُخاطَب دورٌ بارزٌ في جعل المتكلم سواء كان شاعراً أم ناثراً، يتخذ صياغة معينة تتناسب مع المقام الذي يجد المتكلمُ نفسَهُ فيه، وسواء كان الكلامُ مسموعاً أم مقروئاً.

الكلمات المفتاحية: المخُاطَب، الكلام، صناعة، تأثير.

The Influence of the Addressee in the Speech Industry among Ancient Arabic Scholars

Najih Salim Al-Mihanna
Professor, Department of Arabic Language, College of Arts, University of Basra, Iraq
najahalmihana@yahoo.com

Abstract

The term Speech Industry is a broad term, as it means authorship in its broadest sense. With the term Speech Industry, we are talking about the statement of the preacher, the poet, the transmitter, and the writer. The topic is ramified and

contains long words. It is found in ancient Arabic references and books such as Al-Bayan and Al-Tabyeen by Al-Jahiz, Al-Sana'atayn book by Al-Askari, Al-Kala'i's book Ahkam San'at Al-Kalam, and many others. In this paper, we try to shed light on an important joint of the topic of speech-making, which is the impact of the addressee on it, as explained by ancient Arabic scholars and those interested in studying the Arabic statement. Himself in it, whether the speech is heard or read.

Keywords: Addressees, Speech, Industry, Scientists.

تحديد العنوان وما فيه من مصطلحات

أثر المُخاطب في صناعة الكلام لدى علماء العربية القدامى:

الأثرُ: جاء في لسان العرب لابن منظور: ((والأثر بالتحريك: ما بقي من رسم الشيء، والتأثيرُ إبقاءُ الأثرِ في الشيء. وأثَّر في الشيء: ترك فيه أثراً)) [1]، وببساطة شديدة ما أعنيه بالمُخاطَب إنما هو المُخاطَبُ العاقلُ الذي يستقبل القولَ، وقد استبعدت ذلك المُخاطب غير العاقل الذي يخاطبه الشعراء كالديار والأطلال. والكلام هنا إنَّما هو القول الصادر عن العاقل المتوجه به نحو عاقل آخر يقصد من خلاله إيصال معنى ما، لغرض القيام بفعل ما، أو النهي عن القيام بفعل ما، وقد يكون الكلام مكتوباً أو مسموعاً، أي نحن هنا أمام مُخاطَبٍ مستمعٍ مباشرٍ حاضرٍ لحظةَ النطق بالقول أو الكلام، وقد يكون المُخاطَبُ قارئاً مستقبلاً للقول، ولكنه (أي المخُاطب بشكل عام) يوجّه المتكلّمَ أو القائلَ بشكل غير مباشرٍ، بحكم ما يملكه من رتبة اجتماعية أو سياسية، ليأتي بالكلام منسجماً مع تلك الرتبة أو المكانة الاجتماعية أو السياسية.

أما الصناعة هنا فتعني أن الكلام يخضع لقصد المنشئ الذي يكون هنا أشبهَ بالحرفي أو الصائغ. ويجيء الكلام مرتباً بقصدٍ من قبل المتكلم أو القائل، ويأتي خاضعاً لتركيبٍ معينٍ. جاء في لسان العرب: ((صنع: صَنعَهُ يَصنَعهُ صُنْعاً فهو مصنوعٌ ... والصناعةُ: حرفةُ الصانع، وعمَلُه الصَّنعةُ. والصّناعةُ ما تستطيع من أمر)) مادة (صنع) [2].

مفهوم الكلام وصناعته

لا بدَّ أولاً من إيضاح مفهوم الكلام لدى علماء العربية القدامى لنتقدم بعد ذلك لنتحدث عن مفهوم صناعته. يشير عبد القاهر الجرجاني إلى مصطلح الكلام وأهمية الكلام بقوله: ((إعلم أنَّ الكلام هو الذي يعطي العلوم

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (6)
IJESA
June 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (6)

منازلها، ويبيّن مراتبها، ويكشف عن صورها، ويجني صنوف ثمرها، ويدلّ على سرائرها، ويبرز مكنون ضمائرها، وبه أبان الله تعالى الإنسان من سائر الحيوان، ونبّه فيه على عِظَمِ الامتنان، فقال عزّ من قائل: (الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسانَ، عَلَّمَهُ الْبَيانَ) فلولاه لم تكن لتتعدّى فوائد العلم عالمه، ولا صحّ من العاقل أنْ يفتق عن أزاهير العقل كمائمه، ولتعطّلت قوى الخواطر والأفكار من معانيها، واستوت القضيّة في موجودها وفانيها)) [3]، فكلام الجرجاني واضح أشدّ الوضوح ولا يحتاج شرحاً، فالكلام هو الواسطة لنقل ما في النفس من الخواطر والأفكار والمعاني إلى الآخرين. وقال أبو القاسم الكلاعي في كتابه إحكام صنعة الكلام: ((وجعلتُ أبحثُ عن ضروب الكلام فوجدتها على فصول وأقسام منها: الترسيل، ومنها التوقيع، ومنها الخطبة، ومنها الحِكَمُ المرتجلة والأمثال المُرسلة ... ومنها الموزَّى والمعمّى، ومنها المقامات والحكايات، ومنها التوثيق، ومنها التأليف)) [4] وجاء في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري قولُه: ((أجناس الكلام المنظوم ثلاثة: الرسائل والخطب والشعر، وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب، وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحًا وشرحًا، وسوء التأليف مع رداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية)) [5] وفي موضع آخر أشار العسكري إلى تشابه الرسائل والخطب وأنهما ينتميان إلى الكلام بقوله ((وأعلم أنّ الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل؛ فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتّاب في السهولة والعذوبة؛ وكذلك فواصل الخطب، مثل فواصل الرسائل؛ ولا فرق بينهما إلّا أنّ الخطبةَ يُشافهُ بها، والرسالةَ يُكتبُ بها؛ والرسالةُ تُجعلُ خطبة، والخطبة تُجعَلُ رسالة، في أيسر كُلفة؛ ولا يتهيّأ مثل ذلك في الشعر من سرعة قلبه وإحالته إلى الرسائل إلّا بكُلفة؛ وكذلك الرسالة والخطبة لا يُجعلان شعراً إلا بمشقّة)) [6] فالواضح من النص السابق أنَّ الكلامَ يعني النظمَ والنثرَ بجميع فنونه. وسواء كان مشافهةً أو مكتوباً. إلّا أنَّ هذا الكلام بصنفيه: النظم والنثر تحكمه شروط يبيّنُها علماء العربية القدامى وأدباؤها، فقد جاء في كتاب الإمتاع والمؤانسة قول التوحيدي: ((والتفاضل الواقع بين البلغاء في النظم والنثر، إنَّما هو في هذا المركب الذي يسمَّى تأليفاً ورصفاً)) [7] فمعيار جودة النظم أو النثر هو طريقة التأليف والسبك.

ويقول الجرجاني: ((ومن البيّن الجليّ أن التباين في هذه الفضيلة، والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة، ليس بمجرّد اللفظ. كيف؟ والألفاظ لا تفيد حتى تؤلّف ضرباً خاصّاً من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب)) [8] ويأتي الجرجاني ليقدم لقارئه مثالاً يؤيد أهمية التركيب والتأليف بين الألفاظ، بقوله: ((فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدّا كيف جاء واتّفق، وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بني، وفيه أفرغ المعنى وأجري، وغيّرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وبنسقه المخصوص أبان المراد، نحو أن تقول في: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل «منزل قفا ذكرى من نبك حبيب»، أخرجته

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (6)
IJESA
June 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (6)

من كمال البيان، إلى مجال الهذيان. نعم وأسقطت نسبته من صاحبه، وقطعت الرّحم بينه وبين منشئه، بل أحلت أن يكون له إضافة إلى قائل، ونسب يختصّ بمتكلم. وفي ثبوت هذا الأصل ما تعلم به أنّ المعنى الذي له كانت هذه الكلم بيت شعر أو فصل خطاب، هو ترتيبها على طريقة معلومة، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة)) [9] فبغير حصول الألفاظ على صورة من التأليف مخصوصة ينتقل المعنى إلى مجال الهذيان، ولا يكون للكلام فائدة.

وقال الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز: ((وذلك أنَّ نظم الحروف هو تواليها في النطق، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتفٍ في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرّى في نظمه لها ما تحرّاه. فلو أنّ واضع اللغة كان قد قال: «ربض» مكان «ضرب»، لما كان في ذلك ما يؤدّي إلى فساد. وأمّا «نظم الكلم» فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتّبها على حسب ترتّب المعاني في النفس. فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو «النّظم» الذي معناه ضمّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتّفق. ولذلك كان عندهم نظيراً للنّسج والتأليف والصّياغة والبناء والوشي والتّحبير وما أشبه ذلك، ممّا يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون لوضع كلّ حيث وضع، علّة تقتضي كونه هناك، وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح)) [10] وبتعبير آخر وبمعنى قريبٍ مما سبق نجد عليَّ بن خلف في كتابه مواد البيان يقول: ((ولما كانت المعاني هي المقصودة بالعبارة (...)، وكانت صورُها لا تخرجُ من القوة إلى الفعل فتصير حقائقُها معلومة لمن قصدَ إعلامه إيَّاها إلّا بالألفاظ الموضوعة للتعبير عنها والدلالة عليها أوجبَ ذلك اشتراك المعاني والألفاظ وارتباطهما كما ترتبطُ الصورُ بمولودِها والأرواحُ بأجسادها، واقتضى هذا الاتصالُ بالتواشج والاختلاط والتمازج مراعاة الحال في تأليفهما وتنزيل ما تركبَّ منهما على حسب منازل الأغراض التي تقع المُخاطبةُ والمُكاتبةُ فيها والأزمنة والأمكنة ومراتب المخاطَبين وتوفية كل موضع ما تقتضيه رُتبتُه)). [11] ولا يخفى ما في هذا النصِّ من إحاطة بمفهوم الكلام من جميع جوانبه ابتداءً من مرحلة تأليفه ومروراً بمراعاته مقتضى الحال ومراتب المُخاطَبين، مترجماً القاعدة البيانية (لكل مقام مقال) بدقة متناهية. فالكلام يعني الألفاظ التي يستخدمها القوم في التعبير عن أغراضهم والتواصل فيما بينهم بشرط أن تأتي في طريقة معينة من التأليف والرصف والسبك على حسب منازل الأغراض التي تقع المُخاطبةُ والمُكاتبةُ فيها والأزمنة والأمكنة ومراتب المخاطَبين وتوفية كل موضع ما تقتضيه رُتبتُه بتعبير علي بن خلف.

والشعرُ صناعةٌ كما يرى أبو هلال العسكري، وغيره من العلماء العرب القدماء، حيث يقول: ((وإذا أردتَ أنْ تعمل شعراً فأحضر المعاني التي تريد نظمَها فكرَك، وأخطِرها على قلبك، واطلب لها وزناً يتأتّى فيه إيرادُها وقافيةً يحتملها؛ فمن المعاني ما تتمكّن من نظمه في قافية ولا تتمكّن منه في أخرى، أو تكون في هذه أقرب

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (6)
IJESA
June 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (6)

طريقاً وأيسر كلفة منه في تلك؛ ولأن تعلو الكلام فتأخذه من فوق فيجيء سلساً سهلاً ذا طلاوة ورونق خير من أن يعلوك فيجيء كزّا فجّاً ومتجعداً جلفاً)).[12] فنحن هنا مع العسكري أمام عملية صناعة مقصودة فالشاعر هنا لدى العسكري يريد أن يعمل شعراً لذا عليه أولاً أن يحضر المعاني التي يريد نظمها، ويستدعيها ويخطرها على قلبه، ثم ينتقل الشاعر إلى المرحلة التالية فيطلب لتلك المعاني التي أحضرها وزناً وقافية. ويشترط أن يكونا الوزن والقافية متلائمين مع المعنى الذي يريد نظمه شعراً، وكأنَّ الشاعر هنا يتعامل مع أدوات مادية يركبها ليصنع منها شكلاً معيناً.

وليس ببعيد عن هذا المعنى من أنَّ الشعر صناعة قول الجاحظ الذي سبق العسكريَّ: ((والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجميُّ والعربيُّ، والبدويُّ والقرويُّ (والمدني) وإنّما الشأنُ في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج (وكثرة الماء)، وفي صحّة الطبع وجودة السّبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من السج، وجنس من التصوير))، [13] وقد أورد الجاحظ مصطلح صناعة الكلام في مواضع عديدة من مؤلفاته فقد جاء في كتابه البيان والتبيين قوله: ((فإنْ كان الخطيب متكلماً تجنَّبَ ألفاظ المتكلمين، كما أنَّه إنْ عبَّر عن شيء من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً ، كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلّمين))[14]، وقوله في موضع آخر: ((وإنَّما جازت هذه الألفاظ في صناعة الكلام حين عجزت الأسماءُ عن اتِّساع المعاني)). [15]

يتعامل العسكري مع الكلام على مدار كتابه على أنه صناعة وهو ما يفصح عنه عنوان كتابه نفسه، ونجده يقول: ((إذا أردتَ أنْ تصنع كلاماً فأخطر معانيه ببالك، وتنوّق له كرائم اللفظ، واجعلها على ذكر منك؛ ليقرب عليك تناولها، ولا يتعبك تطلّبها، واعمله ما دمت في شباب نشاطك؛ فإذا غشيك الفتور، وتخوّنك الملال فأمسك؛ فإنّ الكثير مع الملال قليل، والنفيس مع الضّجر خسيس؛ والخواطر كالينابيع يسقى منها شيء بعد شيء، فتجد حاجتك من الرّى، وتنال أربك من المنفعة)). [16]

ويضيف العسكري مؤكداً أنَّ الكلام صناعة قولَهُ: ((وقالوا ينبغي لصانع الكلام ألّا يتقدم الكلام تقدماً، ولا يتبع ذنباه تتبعاً، ولا يحمله على لسانه حملاً، فإنَّه إن تقدم الكلام لم يتبعه خفيفه وهزيله وأعجفه والشاردُ منه. وإن تتبعه فاتته سوابقه ولواحقه، وتباعدت عنه جياده وغُرَرُه)) [17]، وقال العسكري في موضع آخر من كتابه الصناعتين: ((وتخيُّرُ الألفاظ، وإبدالُ بعضها من بعض يوجب التئام الكلام؛ وهو من أحسن نعوته وأزين صفاته، فإن أمكن مع ذلك منظوماً من حروف سهلة المخارج كان أحسن له وأدعى للقلوب إليه)) [18]، وهذا كلامُ واضح الدلالة على أنَّ الكلام صناعة.

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (6)
IJESA
June 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (6)

وجاء في كتاب مثالب الوزيرين للتوحيدي: ((والشعرُ كلامٌ وإن كان من قبيل النظم، كما أنَّ الخُطبةَ كلامٌ وإنْ كان من قبيل النثر، والانتثار والانتظام صورتان للكلام في السَّمع، كما أنَّ الحقّ والباطل صورتان للمعنى، وكذلك المثل في السمع، وليس الصواب مقصوراً على النّثر دون النظم، ولا الحقّ مقبولاً بالنّظم دون النّثر)) [19].

وجاء في كتاب نقد النثر المنسوب إلى قدامة بن جعفر: ((وليس يخلو المنثور من أن يكون خطابةً أو ترسُّلاً، أو احتجاجاً، أو حديثاً، ولكل واحدٍ من هذه الوجوه موضعٌ يُستعمل فيه (...)، والبلاغة في الجميع واحدة، والعيُّ قريبٌ من قريب. إلّا أنَّ الخطابة لما كانت مسموعة من قائلها ومأخوذة من لفظ مؤلفها، وكان الناس جميعاً يرمقونه ويتصفَّحون وجهه كان الخطأ فيها غير مأمون، والحصر عند القيام بها محذوراً، فأما الرسائل فالإنسان في فسحةٍ من تحكيكها وتكرير النظر فيها، وإصلاح خلل إنْ وقع في شيءٍ منها، ثم هي نافذة على يد رسول أو طي كتاب، فقد كُفي صاحبها المقام الذي ذكرناه، والحصر الذي وصفناه)) [20]، وقال العسكري: ((والمقدم في صنعة الكلام المستولي عليه من جميع جهاته، المتمكن من جميع أنواعه)) [21]، وقال: ((والناس في صناعة الكلام على طبقات)).[22]

وممن ذكر مصطلح الصناعة ونسبها إلى الكلام صاحب كتاب المثل السائر ابن الأثير حيث قال: ((اعلم أنَّ صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر إلى آلات كثيرة، وقد قيل: ينبغي للكاتب أن يتعلق بكل علم، حتى قيل: كلّ ذي علم يَسُوغ له أن يَنسُبَ نفسَه إليه فيقول: فلان النحوي، وفلان الفقيه، وفلان المتكلم، ولا يَسُوغ له أن يَنسُبَ نفسَهُ إلى الكتابة فيقول: فلان الكاتب، وذلك لما يفتقر إليه من الخوض في كل فن)).[23]

وقد جاء بمصطلح صناعة الكلام القنوجي في كتابه أبجد العلوم وقد نقل كلام ابن خلون في مقدمته [24]: ((اعلم أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ لا في المعاني وإنما المعاني تبع لها وهي أصل)) [25].

ومن أقدم من استخدم مصطلح صناعة واصفاً به الشعرَ هو محمد بن سلام الجمحي (ت 231 هـ) في كتابه طبقات فحول الشعراء حيث قال: ((وللشعر صناعةٌ وثقافةٌ يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات: منها ما تثقفُه العين، ومنها ما تثقفه الأُذن، منها ما تثقفه اليد ومنها ما يثقفه اللسان، من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يُعرَفُ بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره، ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لا يَعرف جودتَهما بلون ولا مسٍّ ولا طِرازٍ ولا حسٍّ ولا صفة، ويعرفها الناقد عند المعاينة فيعرف بهرجها وزائفها وستُّوقها ومُفرَّغَها)). [26]

وبهذا نجد العلماء العرب القدامى قدموا فهمهم للكلام على أنّه (صناعة) شأنها شأن الصناعات الأخرى. ونجد القلقشندي في كتابه صبح الأعشى يقول: ((حتى إنّ الوزير ضياء الدين بنَ الأثير في المثل السائر قد عاب أبا إسحاق الصابي على جلالة قدره في الكتابة، واعترافه له بالتقدم في الصناعة، بكتابٍ كتبه بفتح بغدادَ وهزيمة التُّرك)) [27]، فالقلقشندي هنا قد قرن مصطلح الصناعة بالكتابة حيث قال: (واعترافه له بالتقدم في الصناعة). وقال في موضع آخر مشيراً إلى ضرورة أن يأتي الكاتب في صدر المكاتبة بما يدلُّ على عجزها بقوله: ((وفضلاء الكتَّاب وأئمتهم يعتَنُون بذلك كلَّ الاعتناء، ويرَوْن تركه إخلالاً بالصنعة)) [28]، فالقلقشندي يستخدم هنا مفردة صنعة للدلالة على الصناعة.

مراعاةُ المُخاطَب

لا بد من الإشارة هنا إلى أنَّ ما نعنيه بمراعاة المخاطب هو اهتمام المتكلم بأحواله المختلفة من حيث العلم والجهل، والقرب والبعد، والعلو والدنو، ومراعاة المنزلة الاجتماعية، أو السياسية وغير ذلك. وقد شاعت عبارة: (لكل مقام مقال)، وهي من المقولات الأساسية في البلاغة العربية التي تعني من بين ما تعنيه مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، وقد تناولت كتب البيان العربي موضوع مقتضى الحال عندما ركزت على العلاقة التواصلية بين المُتكلم والمُخاطَب، وما يحكم هذه العلاقة من سياق يؤثر في جلاء المعنى.

ومما أوردَهُ الجاحظُ في الصّحيفةِ المعروفةِ بصحيفة بِشر بن المُعتَمِر: ((ويكون معناكَ ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً، إمَّا عند الخاصَّة إنْ كنتَ للخاصَّةِ قصدتَ، وإمَّا عند العامة إنْ كنتَ للعامة أردتَ)) [29]، وقد جاء في كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة قوله: ((ونستحبُّ له أيضاً أن يُنزِّل ألفاظه في كتبه، فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه، وأن لا يعطي خسيسَ الناس رفيعَ الكلام، ولا رفيعَ الناس وضيعَ الكلام، فإنّي رأيت الكتَّاب قد تركوا تفقُّدَ هذا من أنفسهم، وخلطّوا فيه)).[30] وقد جاء في كتاب الصناعتين قول العسكري في هذا المعنى: ((وأنْ تعرف مقدار المكتوب إليه من الرؤساء والنظراء والغلمان والوكلاء)). [31]

وجاء في كتاب صناعة الكتّاب للنحاس قوله: ((أذكرُ فيها إنْ شاء الله ترتيبات اصطلح عليها الكُتّابُ وأذكرُ أصولَ المكاتبات والتفريق فيها، وأصول مكاتبة الرئيس إلى من دونه ومكاتبة نظيره، والمرؤوس رئيسه)) [32] وقد ذكر القلقشندي: ((أنْ يُراعى جانب المكتوب إليه في الرفعة بعض المُراعاة)) [33]، وقال العسكري: ((فأوّل ما ينبغي أن تستعمله في كتابتك مكاتبة كلّ فريق منهم على مقدار طبقتهم وقوّتهم في المنطق)) [34]، وليؤكد العسكري ما أورده فقد جاء بشواهد بقوله: ((والشاهد عليه أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لما أراد أن يكتب

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (6)
IJESA
June 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (6)

إلى أهل فارس كتب إليهم بما يمكن ترجمتُهُ، (...) فسهّل صلّى الله عليه وسلّم الألفاظ كما ترى غاية التسهيل حتى لا يخفى منها شيء على من له أدنى معرفة في العربية)). [35]

ويضيف العسكري قولَه: ((ولما أراد أن يكتب إلى قوم من العرب فخّم اللفظ، لما عرف من فضل قوتهم على فهمه وعادتهم لسماع مثله)) [36]، و((كذلك كتابه صلّى الله عليه وسلّم لأكيدر صاحب دومة الجندل)) [37]. وقد جاء في كتاب الحيوان للجاحظ ما يشير إلى أثر المُخاطب في صناعة الكلام من قبل المتكلم، أو بعبارة أخرى مراعاة المتكلم المخاطَبَ في صناعة الكلام، عندما أشار إلى طبيعة كتابه، بقوله: ((ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العربَ والأعرابَ أخرجَ الكلامَ مخرجَ الإشارة والوحي والحذف. وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم، جعله مبسوطاً وزاد في الكلام)) [38]. وفي هذا المعنى قال الكلاعي: ((وخير من هذين أنْ يلقى كلَّ طبقة بما يشاكلها من اللفظ ويوافقها، ويقابل كل فئة بما يشاكلها من المعنى ويطابقها)). [39]

لَحَنَ الأميرُ فلحَنتُ

وهنا قد نتوسع في فهم مقتضى الحال ولكل مقام مقال، وهذا ما قدمه علماء العربية القدماء، عندما رخَّصوا للمتكلم في أنْ يخرج على قوانين اللغة القارة مراعاة الحال الحاضرة، ومن ذلك حديثهم حول اللحن: ((واللحنُ ما خالف اللغة العربية وخرج عن استعمال أهلها، وما بُنِيَ عليه إعرابها)). [40]، وقد حذر منه اللغويون العرب القدماء ومنه قولهم: ((ومما يجب على الكاتب أن يتحفظ من التصحيف، ويتحرز من اللحن والتحريف، فقد قالوا اللحن في الكلام كالجدري في الوجه)). [41]

ومع هذا الحذر من اللحن نجدهم قد أباحوه في مواضع مُراعاةً للمُخاطَب، ((وأما المواضع التي يجب أنْ يُستعملَ اللحنُ فيها ويُتَعمَّد له في أمثالها ويكون ذلك مما يوجبه الرأيُّ، فهو عند الرؤساء الذين يلحنون، والملوك الذين لا يُعربون. فمن الرأي لذي العقل والحُنْكة والحكمة والتجربة ألّا يُعرب بين أيديهم، وأنْ يدخُل في اللحن مدخَلَهم، ولا يُريهم أنَّ له فضلاً عليهم، فإنَّ الرئيسَ والملكَ لا يحبُّ أنْ يرى أحداً من تُبَّاعه فوقه، ومتى رأى أحداً منهم قد فضله في حال من الأحوال نافسه وعاداه وأحبَّ أن يضعَ منه)). [42]، ومن شواهد ذلك ما أوردته بعض كتب الأدب من أخبار منها خبرُ الحجَّاج مع الشعبي، فقد ((دخل الشعبي على الحجَّاج، فقال له: كم عطاءَك؟ (بالنصب) قال: ألفين. قال: ويحك! كم عطاؤك؟ قال: ألفان. قال: فَلِمَ لحَنتَ فيما لا يلحَن فيه مثلُك؟ قال: لَحَنَ الأميرُ فلحَنتُ، وأعربَ الأميرُ فأعربتُ، ولم أكن ليلحَنَ الأميرُ فأُعرِبَ أنا عليه، فأكون كالمُقرِّع له بلحنِه، والمُستطيلِ عليه بفضل القول قبله! فأعجبه ذلك منه ووهبه مالاً)). [43] ومع أنَّ اللحن خروجٌ على قوانين اللغة العربية إلّا أنَّنا نجد الشعبيَّ قد لَحَنَ مراعاةً للمُخاطَب ورتبته ولكي لا يُظهر

International Journal of Educational Sciences and Arts, London Vol (3), No (6), 2024
https://doi.org/10.59992/IJESA.2024.v3n6p9 E-ISSN 2976-7237

هذا المُخاطَبَ بمظهر مَن يجهل قواعد اللغة، ويجعل من نفسه هو مقرِّعاً لهذا المُخاطَب على لحنه، مع ما له من رتبة سلطانية.

الكلام في إصلاح ذات البين وفي خطبة النِّكاح

اشترط البيانيون العرب القدماء على المتكلم أن يُراعي في كلامه السياق الاجتماعي الذي يجد فيه حالَه وحالَ المخاطَب، فيوجز حين يكون الإيجاز كافياً لإيراد المعنى، ويعدل عنه إلى الأطناب حين يكون الأطناب موفياً للمعنى المراد توصيله. لذلك قال الجاحظ: ((والإيجاز هو البلاغة. فأمّا الخُطبُ بين السماطين وفي إصلاح ذات البين فالإكثار في غير خطل، والإطالةُ في غير إملال، وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته)) [44]، و((قال: والسنّة في خطبة النكاح أن يطيل الخاطب ويقصِّر المجيب. ألا ترى أنَّ قيس بن خارجة بن سنان، لما ضرب بصفيحة سيفه مؤخّرة راحلتي الحاملين في شأن حَمَالة داحس والغبراء، وقال: ما لي فيها أيها العَشَمتان؟ قالا له: بل ما عندك؟ قال: عندي قرى كلّ نازل، ورضا كلِّ ساخطٍ، وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أنْ تغرب، آمر فيها بالتواصل وأنهى فيها عن التقاطع)) [45]، فالإطالة هي الأصل في موضع إصلاح ذات البين وذلك مراعاة لحالة العداوة والتنافر والشحناء بين المتنازعين أو المتحاربين، فالحالة تحتاج إلى كلام كثير حتى يلين أحد الطرفين، فضلاً عن لين الطرفين معاً.

وكذلك الحال بالنسبة لخطبة النكاح فالأصل فيها أن يُطيل الخاطبُ إكراما لقوم المرأة، وليُكثر فيها ذكر محامد القوم وعِظَمِ منزلتهم بين القبائل. وفي هذا مراعاة للمُخاطَب. ومن المواضع الأخرى التي يجب أن يُراعى فيها إطالة الكلام ما أشار إليه أبو هلال العسكري حيث قال: ((فأمّا ما يكتبه العمال إلى الأمراء ومن فوقهم، فإنّ سبيلَ ما كان واقعاً منها في إنهاء الأخبار، وتقرير صور ما يلونه من الأعمال، ويجرى على أيديهم من صنوف الأموال أن يُمَدّ القولُ فيه حتى يبلُغَ غايةَ الشفاءِ والإقناع، وتمام الشرح والاستقصاء إذ ليس للإيجاز والاقتصار عليه موضع، ويكون ذلك بالألفاظ السهلة القريبة المأخذ، السريعة إلى الفهم، دون ما يقع فيه استكراه وتعقيد)) [46]، فالمطلوب من العمال هنا تمام الشرح والاستقصاء وذلك لما في أيديهم من الأموال، فيجب عليهم أنْ يمدوا القول ليقنعوا من هم فوقهم من الأمراء ممن كلفوهم مهمة التصرف في تلك الأموال وجبايتها.

كما لم يغفل علماء البيان العربي القدماءُ الجانب النفسي للمُخاطَب، ومراعاة مزاجه، حيث أشار العسكري إلى ذلك بقوله: ((وسبيلُ ما يكتبُ به التابعُ إلى المتبوع في معنى الاستعطاف ومسألة النُّظراء ألّا يكثر من

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (6)
IJESA
June 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (6)

شكاية الحال ورقّتها، واستيلاء الخَصَاصة عليه فيها، فإنّ ذلك يجمعُ إلى الإبرام والإضجار شكايةَ الرئيس لسوء حاله وقلّة ظهور نعمته عليه، وهذا عند الرؤساء مكروه جدّا، بل يجب أن يجعل الشكاية ممزوجة بالشكر والاعتراف بشمول النعمة وتوفير العائدة)) [47]، فهنا يوجه العسكري الكاتب إلى مسألة في غاية الأهمية تتعلق بما عليه الرؤساء والملوك والسلاطين من أخلاق مع من هم دونهم من أبناء رعيتهم، فعلى الكاتب أن يراعي في كتابته حالَ المكتوب إليه وطبيعة أخلاقه.

خطاب السلطان وطبيعة الموضوع

ومن المواضع التي تجب فيها الإطالة مراعاةً للمُخاطَب في ما يصدر عن السلطان من أوامر كما بيّن أبو هلال العسكري بقوله: ((وذلك مثلُ ما يُكتبُ عن السلطان في أمر الأموال وجبايتها واستخراجها، فسبيلُ الكلام أن يُقدَّم فيها ذكرُ ما رآه السلطان في ذلك ودبَّره، ثم يُعقِّبُ بذكر الأمر بامتثاله، ولا يقتَصر على ذلك حتى يُؤكّد ويكرر لتأكيد الحجة على المأمور به، ويُحذَّر مع ذلك من الإخلال والتقصير))، [48] فنلاحظ هنا أنَّ الإطالةَ إنَّما جاءت مراعاةً لطبيعة الموضوع المكتوب فيه، وهو موضوع خاص بالأموال وجبايتها، لتأكيد الحجة على المأمور المُخاطَب. وفي موضع آخر من كتابه قال العسكري: ((ولا شكَّ في أنَّ الكتب الصادرة عن السلاطين في الأمور الجسيمة والفتوح الجليلة وتفخيم النعم الحادثة والترغيب في الطاعة والنهى عن المعصية سبيلها أنْ تكون مُشْبعَةً مستقصاه تملأ الصدور وتأخذ بمجامع القلوب)). [49]

للمُخاطَب سلطتُهُ التي يمارسها على المتكلم، وتجعله يصوغ الكلام صياغة معينة، تفرضها طبيعة العلاقة التي تكون بين المُتكلم والمُخاطَب، هذه العلاقة التي تتصف بالتراتبية: علاقة الأعلى بالأدنى منه رتبة، أو علاقة النظراء الأكفاء.

يقول العسكري: ((هذا، أدام الله عزَّك، بعد أنْ تُفرّقَ بين من تكتب إليه «فإن رأيت، وبين من تكتب إليه» فرأيك. وأن تعرف مقدار المكتوب إليه من الرؤساء والنظراء والغلمان والوكلاء، فتفرق بين من تكتب إليه بصفة الحال وذكر السلامة، وبين من تكتب إليه بتركها إجلالاً وإعظاماً، وبين من تكتب إليه: أنا أفعل كذا، وبين من تكتب إليه: نحن نفعل كذا «فأنا» من كلام الإخوان والأشباه، «ونحن» من كلام الملوك)). [50]

وذكر الكلاعي: ((فمن ذلك أنَّ لفظ الأكبر والأعظم والأعلى والأجل والنبيه والنبيل، فيكتب به إلى من دون هذا القبيل. وأما قولك: أدام الله إزغزه، فلا يُكتب به إلاّ إلى أُولي النهي والأمر ممن يكتب عن نفسه: ونحنُ فعلنا كذا. لأنَّ هذه اللفظة لا يكتبها عن نفسه إلاّ آمر أو ناه. وفي الكتاب العزيز (إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون). [51] وأما قولك أعزك الله، فيُكتب به إلى من يستقلُّ بذاته ممن يكتب عن نفسه: وأنا فعلت كذا.

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (6)
IJESA
June 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (6)

وأمّا قولُك: أدامَ اللهُ عزَّه، فيُكتبُ به إلى أهل النباهة والرفعة، ممن يُكتب إليه: فإن رأيت كذا، لأنَّ هذه اللفظة إنما يُكتب بها إلى أهل الجلالة والعلا. وأمّا قولُك: فرأيك في كذا، فإنما يُكتب بها إلى الأكفاء، لأنَّ فيها معنى الأمر. ولذلك نُصبت)). [52]

وللرابطة بين المتكلم والمُخاطَب دورها في صناعة الكلام من قِبل المتكلم وهذا ما أشار إليه العسكري بقوله: ((وينبغي أنْ يكون الدعاء على حسب ما توجُبُه الحالُ بينك وبين مَنْ تكتبُ إليه، وعلى قدر المكتوب فيه)) [53]، فلمرتبة مَنْ تتوجه إليه بالدعاء دورها في صياغة الكلام صياغة معينة تتناسب مع الحال التي تربط المتكلم مع المُخاطَب صاحب الرتبة الأعلى.

وجاء في كتاب العقد الفريد: ((وقال يحيى بن خالد بن برمك: مُساءلةُ الملوك عن حالها من سجيّة النَّوكى، فإذا أردتَ أنْ تقولَ: كيف أصبح الأمير؟ فقل: صبَّحَ الله الأمير بالنعمة والكرامة. وإذا كان عليلاً فأردتَ أنْ تسأل عن حاله، فقل: أنزل الله على الأمير الشفاء والرحمة، فإنّ الملوك لا تُسأل ولا تشمَّتُ ولا تكيّف)) [54]، فللحال التي تربط المتكلم مع المُخاطَب صاحب الرتبة الأعلى دورُها في صياغة الكلام من قبل المتكلم صياغة معينة.

المُخاطَب النبيه

للمُخاطَبِ نفسِهِ أشكالٌ تتحكم في طبيعة الخطاب الصادر عن المتكلم، فالخطاب المُوجَّه إلى المُخاطَب النبيه غير ذلك الخطاب الذي يُوجَّه نحو من يقلّ عنه نباهةً، قال حاجي خليفة: ((ومتى كانت الخواطر ثاقبة والأفهام للمراد من الكتب متناولة قام الاختصار لها مقام الإكثار، وأغنت بالتلويح عن التصريح، وإلّا فلا بد من كشفٍ وبيانٍ وإيضاحٍ وبرهانٍ ينبه الذاهل ويوقظ الغافل)) [55]، وهنا نوع خاص من المتلقين المُخاطَبين خصَّهم المؤلف حاجي خليفة بصفة أصحاب (الخواطر الثاقبة) ومعهم يقوم الإيجاز والتلويح مقام الإكثار والتصريح. ((فإنَّ الإيجاز ينبغي أن يُستعمل في مخاطبة الخاصة وذوي الأفهام الثاقبة الذين يجتزئون بيسير القول عن كثيره وبجمله عن تفسيره)) [56]، كما جاء في كتاب نقد النثر المنسوب خطأً إلى قدامة بن جعفر: ((وأمّا الإطالة: ففي مخاطبة العوامّ ومن ليس من ذوي الأفهام ومن لا يكتفي من القول بيسيره، ولا يتفتق ذهنُهُ إلّا بتكريره وإيضاح تفسيره، لهذا استعمل الله عزَّ وجلَّ في مواضع من كتابه تكرير القصص وتصريف القول، ليُفهِم مَنْ بعُدَ فهمه ويُعْلِم مَنْ قَصُرَ علْمُهُ، واستعمل في موضع آخر الإيجاز والاختصار، لذوي العقول والأبصار)). [57]

ونحن هنا نتذكر ابن دريد وتبريره تأليف كتابه جمهرة اللغة وقد أجراه على الحروف المعجمة مراعاة المخُاطَب من عوام الناس: ((وأجريناه على تأليف الحروف المعجمة إذ كانت بالقلوب أعبق وفي الأسماع أنفذ، وكان علم العامة بها كعلم الخاصة، وطالبها من هذه الجهة بعيداً من الحيرة مشفيا على المراد)) [58]، ونجده في مقابل ذكره عوام الناس يذكر الخليل صاحب كتاب العين ويصف أهل دهره بحدَّة الذهن، بوصفهم مُخاطَبين، بقوله: ((وقد ألَّفَ أبو عبد الرحمن الخليل الفرهودي رضوان الله عليه (كتاب العين) فأتعب من تصدَّى لغايته وعنّى من سما إلى نهايته فالمنصف له بالغلب معترف والمعاند متكلف وكلُّ مَنْ بعده له تبعٌ أقرَّ بذلك أم جحد ولكنَّه رحمه الله ألف كتاباً مشكلاً لثقوب فهمه وذكاء فطنته وحِدَّةِ أذهان أهل دهره)). [59]

فالمُخاطَبُ الذي توجَّه إليه الخليل الفراهيدي في كتابه العين كان مُخاطَباً يتَّصِفُ بِحِدَّة الذِّهنِ، وكان الكتابُ نفسُه مشاكلاً لذكاء وفطنة الخليل الذي خاطب جمهوراً فطناً، على خلاف جمهور عصر ابن دريد، حسب وصف ابن دريد نفسه لهم، الأمر الذي اضطره لأن يؤلِّف كتابه على الحروف المعجمة التي (كان عِلْمُ العامَّة بها كعلمِ الخاصَّةِ).

وكما وصف ابن دريد أهلَ زمان الخليل بحدّةِ الأذهان نجد ابن قتيبة يصفُ أهلَ زمانه هو بالغباوة والغفلة، يقول: ((فإني رأيتُ كثيراً من كتَّاب أهل زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدِّعة واستوطنوا مركبَ العجز، وأعفوا أنفسهم من كدِّ النظر وقلوبَهم من تعب التفكُّرِ، حين نالوا الدرَك بغير سبب، وبلغوا البِغية بغير آلة، ولعمري كان ذاك فأين همَّة النفس؟ وأين الأنفة من مجانسة البهائم؟)) [60]، فالملاحظ هنا أنَّ ابن قتيبة يصل بوصفه أهل زمانه بصفة البهائم، ومن الطبيعي عندما يؤلف ابن قتيبة كتاباً لا بدَّ أن يكون الكتابُ على قدر عقول أهل زمانه من الكُتَّاب وسائر أهله، لذلك قال: ((فعملتُ لِمُغفِل التأديب كُتُباً خفافاً في المعرفة، وفي تقويم اللسان واليد، يشتمل كلُّ كتابٍ منها على فن، وأعفيته من التطويل والتثقيل)) [61]، فابن قتيبة يجد نفسَه أمام قارئ مُفترَضٍ لكتابه يقومُ مقامَ المُخاطَبِ، يتصفُ بالغفلة، ولا يرغب في الكتب الثقال، لذلك يأتي ابن قتيبة مُراعياً طبيعة ذلك المُخاطَب ليقدم له كُتُباً خفافاً في المعرفة، بعيدةً عن التطويل والتثقيل.

ويعالج أبو هلال العسكري موضوع ما يصدر عن السلطان من كتب، وكيف يكون تنظيمها، من قِبل كاتب السلطان، فنحن هنا أمام السلطان بوصفه صاحب صنعة الكلام، فمتى يوجز هذا السلطان في كتبه الموجهة إلى رعيته؟ ومتى يُطيل فيها؟ فالسلطان هو المنشئ ولو بنيابة كاتبه عنهُ، وذلك لأنَّ الكتبَ الصادرةَ تُعرَضُ عليه، والرعيةُ هي المُخاطَبُ. يقولُ أبو هلال العسكري: ((اعلم أنَّ المعاني التي تنشأ الكتبُ فيها من الأمر

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (6)
IJESA
June 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (6)

والنهي سبيلُها أنْ تؤكَّد غاية التوكيد بجهةِ كيفية نظمِ الكلام لا بجهةِ كثرةِ اللفظِ، لأنَّ حكمَ ما ينفُذُ عن السلطان في كُتُبه شبيهٌ بحكمِ توقيعاته، من اختصار اللفظِ وتأكيد المعنى)). [62]

بلاغة الاستماع (تهيؤ المُخاطَب للاستماع)

تتضح أهمية المُخاطَب ومراعاته من قبل صانع الكلام ابتداءً من الاستماع قال العسكري: ((وقوله: (ربما كانت البلاغةُ في الاستماع)، فإنّ المُخاطَب إذا لم يُحسِن الاستماعَ لم يقفْ على المعنى المؤدّى إليه الخطاب. والاستماعُ الحسنُ عونٌ للبليغ على إفهام المعنى)) [63]، وكذلك قوله: ((ومدارُ الأمر على إفهام كلِّ قومٍ بقدر طاقتهم، والحمل عليهم على مقدار منازلهم)) [64]، وهو عينُ ما أشار إليه الجاحظ بقوله: ((كان مطرِّف بن عبد الله يقول: لا تُطعم طعامَكَ مَنْ لا يشتهيه. يقولُ: لا تُقبلُ بحديثك على مَنْ لا يُقبل عليك بوجهه. وقال عبد الله بن مسعود (حدِّث الناس ما حدَّجوك بأسماعهم ولحظوك بأبصارهم، فإذا رأيت منهم فترةً فأمسك (...) وقال بعضُ الحكماء:(مَنْ لم ينشط لحديثِك فارفع عنه مؤنة الاستماع منك))) [65]. وقد أشار ابن منظور إلى مادة (حدج) بقوله: ((والتحديجُ: شدَّةُ النظر...وحَدَجَهُ ببصره يَحدِجُهُ حدْجاً...وحدَّجَهُ: نَظَرَ إليه نظراً يرتابُ به الآخرُ ويستنكرُهُ ... وروي عن ابن مسعود أنّه قال: حدّث القومَ ما حدَجُوك بأبصارهم أي ما أحدّوا النظر إليك، يعني ما داموا مقبلين عليك نشطين لسماع حديثك، يشتهون حديثك ويرمون بأبصارهم، فإذا رأيتهم قد ملُّوا فَدَعْهُم)) [66]، وقال الجاحظ في موضع آخر من البيان والتبيين: ((فإنْ أردتَ أنْ تتكلف هذه الصناعة، وتُنسبَ إلى هذا الأدب، فقرضتَ قصيدةً، أو حبَّرت خطبة، أو ألَّفتَ رسالة، (...) اعرضه على العلماء ... فإنْ رأيت الإسماع تُصغي له، والعيونَ تَحْدِج إليه، ورأيت مَنْ يطلبه ويستحسنه، فانتحله، ... فإذا عاودتَ أمثال ذلك مراراً، فوجدتَ الإسماعَ عنه منصرفةً والقلوبَ لاهيةً، فخذ في غير هذه الصناعة، واجعل رائدَك الذي لا يكذبك حرصهم عليه، أو زهدهم فيه)). [67]

في هذا النص يجسد لنا الجاحظ أهمية المخاطب في صناعة الكلام سواء كان الكلام شعراً أم خطبة أم رسالة. ويقدم ذلك المتلقي أو المخاطَب بوصفه معياراً يقيس من خلاله جودة تلك الصناعة، فإذا كان مما يُسمع فالإسماع تصغي له، وإذا كان مما يُقرأ فالعيون تُحدج إليه، ويطلبه أولئك الذين يستحسنونه. وبهذا يقدم لنا الجاحظ شكلاً من أشكال المخاطب الناقد الذي يفصح عن موقفه عن طريق إقباله إلى الكلام بمختلف صوره، سواءٌ كان مسموعاً أم مقروءً، أو زهده فيه.

فعمليةُ الإقبال على الاستماع من قِبل المُخاطَبين، والنشاطُ له، تدخل في صلب ما يريد الجاحظ أن يُشيرَ إليه حول دور المُخاطَب السامع في صناعة الكلام. وقد أشار الجاحظ إلى درجة إقبال المُخاطَب المُستمع،

وقرنَ هذا الإقبال باشتهاء الإنسان للطعام، فالانتباه الشديد الحاصل من قِبل المستمع المُخاطَب، أو الإقبال بوجهه نحو المتكلم يشبه تلك الرغبة الشديدة إلى الطعام. وقد جاء في الكتاب المنسوب خطأ لقدامة: ((واذا رأى من القوم إقبالاً عليه وإنصاتاً لقوله فأحبوا أن يزيدهم زادهم على مقدار احتمالهم ونشاطهم. واذا تبيّن منهم إعراضاً عنه وتثاقلاً عن استماع قوله خفَّف عنهم، فقد قيل: من لم ينشط لكلامك فارفع عنه مؤنة الاستماع منك)) [68]، ولا يخرج كلام الجاحظ التالي عما نحن بصدده حيث قال: ((للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فَضُلَ عن قدر الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال، فذلك الفاضلُ هو الهذرُ وهو الخطلُ، وهو الإسهابُ الذي سمعت الحكماء يعيبونه)) [69]، وكرر العسكري هذا القول في كتابه الصناعتين مع اختلاف طفيف في الألفاظ.

وعندما يركز الجاحظ وغيره كثيرون على أهمية الاستماع فهم يخوضون في معنى البلاغة نفسها، يقول العسكري: ((البلاغةُ كلُّ ما تبلغُ به المعنى قلبَ السامع فتُمَكِّنهُ في نفسه كتمكّنِهِ في نفسك، مع صورة مقبولة ومعرضٍ حسنٍ)) [70] فالهدف الرئيس من عملية الكلام أنْ يبلغَ المعنى نفسَ المستقبل المُخاطَب.

وقد أشار ابن طباطبا في كتابه عيار الشعر إلى موضوع المُخاطب ومراعاة مقتضى الحال التي تعني من بين ما تعنيه مُراعاة رُتبِ المُخاطَبين، حيث يقول ابن طباطبا: ((فيخاطب الملوك بما يستحقونه من جليل المخاطبات، ويتوقى حطّها عن مراتبها، وأن يخلطها بالعامة، كما يتوقى أن يرفع العامة إلى درجة الملوك، ويُعدُّ لكل معنى ما يليق به، ولكل طبقة ما يشاكلها)) [71]، من هذا يتضح اهتمام علماء العربية القدماء بالمُخاطَب، ومدى تأثيره في المتكلم وتوجيهه ليصوغ كلامه صياغة معينة تتوافق وتراعي مقتضى الحال والسياق القائم. وقد تبيّن هذا الاهتمام جليّاً وتُرجم بمقولتهم الشهيرة: البلاغةُ مراعاةُ مقتضى الحال، ولكل مقامٍ مقال.

فقد اهتم البلاغيون العرب القدماء بالمُخاطَب، ورتبته الاجتماعية أو السياسية أو الدينية، فهو إمَّا أنْ يكون من الخاصة أو من عامة الناس، ولكلٍّ منهما طريقةٌ في الخطابِ خاصةٍ به. وقد أشار إلى هذا المعنى الجاحظ حيث قال: ((لا يُكلِّمُ سيد الأَمَة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة (...) ومدار الأمر على إفهام كلِّ قوم بمقدار طاقتهم، والحملِ عليهم على أقدار منازلهم)) [72]، وقد اقتبس أبو هلال العسكري هذا القول: ((ولا يُكلِّمُ سيِّدَ الأَمَة بكلام الأَمَة، ولا الملوكَ بكلام السُّوقة. لأنَّ ذلك جهل بالمقامات، وما يصلحُ في كلِّ واحدٍ منهما من الكلام. وأحسنَ الذي قال: لكلِّ مقام مقال. وربَّما غلب سوءُ الرأي، وقلةُ العقل على بعض علماء العربية، فيخاطبون السّوقيّ والمملوكَ والأعجميّ بألفاظ أهل نجدٍ، ومعاني أهل السَّراة)). [73]

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (6)
IJESA
June 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (6)

مُراعاة المستوى الثقافي للمُخاطَب

تناول البيانيون العرب القدماء موضوعَ المُخاطَب، وأشاروا إلى الخاصة والعامة من الناس، واشترطوا على المتكلم أنْ يخاطب كل طبقة من هاتين بما يناسبها من كلام. فلا يُكلِّمُ سيِّدَ الأَمَة بكلام الأَمَة، ولا الملوكَ بكلام السُّوقة، كما مرَّ ذكره. ولم يهملوا المستوى الثقافي أو ما عليه المُخاطَب من علم ومعرفة يجب على المتكلم مراعاتهما عند توجيه خطابه نحوه. وهذا ما عناه العسكري بقوله: ((وإذا كان موضوع الكلام على الإفهام فالواجب أنْ تُقسِّم طبقاتُ الكلام على طبقات الناس، فيُخاطبُ السُّوقيُّ بكلام السُّوقة، والبدويُّ بكلام البَدْو، ولا يُتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه؛ فتذهبَ فائدةُ الكلام، وتُعْدم منفعةُ الخطاب)) [74] فلكلَّ طبقة من طبقات الناس خطابٌ تفهمه، كما أن أصحاب الحرفة الواحدة لهم ألفاظهم التي يتداولونها فيما بينهم وهذا ما أشار إليه الجاحظ. وقد جاء في كتابه البيان والتبيين قوله: ((فإنْ كان الخطيب متكلماً تجنَّبَ ألفاظ المتكلمين، كما أنَّه إنْ عبَّر عن شيء من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً، كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلِّمين، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك العبارات أميل، وإليها أحنُّ وبها أشغف))، [75] ففي هذا النص يحدد الجاحظ طبقة المتكلمين بوصفها الطبقة المقصودة بالخطاب الموجّه لذلك أوجب على الخطيب أن يخاطبهم باللغة التي يفهمونها، وبالعبارات التي يميلون إليها. وقد أورد في كتاب الحيوان قولَه: ((وقبيحٌ بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة، أو في مخاطبة العوَّام والتجار، وفي مخاطبة أهله وعبده وأمته، أو في حديثه إذا حدّثَ، أو خبره إذا أخبر وكذلك من الخطأ أنْ يجلبَ ألفاظ الإعراب وألفاظ العوام، وهو في صناعة الكلام داخلٌ ولكلِّ مقام مقال)). [76]

وعالج أبو هلال العسكري موضوع مراعاة المستوى الثقافي للمُخاطب بقوله: ((ينبغي أن يتكلّم بفاخر الكلام، ونادره ورصينة ومحكمه عند من يفهمه عنه، ويقبله منه، ممن عرف المعاني والألفاظ علماً شافياً، لنظره في اللغة والإعراب والمعاني على جهة الصناعة، لا كَمَنْ استطرف شيئاً منها، فنظرَ فيه نظراً غيرَ كاملٍ، أو أخذ من أطرافه، وتناول من أطراره، فتحلّى باسمه، وخلا من وسمه. فإذا سمع لم يفقه، وإذا سئل لم يَنْقَهْ. وإذا تكلّم عند مَنْ هذه صفته ذهبت فائدة كلامه، وضاعت منفعة منطقه؛ لأنّ العامّيَّ إذا كلمته بكلام العِليةِ سَخِرَ منك، وَزَرى عليك)) [77]، فمخاطبة العامي الذي ليس من شأنه النظر في اللغة وإعرابها، بكلامٍ العلماء يؤدي إلى ضياع الفائدة المرجوَّة من الخطاب. ((فينبغي أنْ يخاطب كلَّ فريق بما يعرفون، ويتجنَّب ما يجهلون)) [78] فإذا ما تجاوز المتكلم هذه القاعدة وضع نفسه ليكون موضوع سخرية المُخاطَبين الذين يخاطبهم بما لا يفهمون.

كما أنَّ هناك صنف من المُخاطبين لا يتناسب معهم الرصين من القول لذا يجب على المتكلم مخاطبتهم بما يناسب مرتبتهم الثقافية وكذلك الاجتماعية، وهذا ما يوضحه الجاحظ بقوله: ((ومتى سمعت- حفظك الله- بنادرة من كلام الأعراب، فإياك أن تحكيها إلا مع أعرابها ومخارج ألفاظها، فإنك إن غيّرتها بأن تلحن في إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير. وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، وملحة من ملح الحشوة والطغام، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب، أو تتخير لها لفظاً حسناً، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها، ويخرجها من صورتها، ومن الذي أريدت له، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها)) [79] فلكلِّ طبقة من الناس كلامٌ يفهمونه ويستطيبونه من مُخاطبيهم، فمن كانوا على معرفة في الإعراب يُخاطبون بالنادرة والمُلحة المُحافظة على إعرابها، وتجدهم يستطيبون تلك النواد والمُلح. أمَّا نوادر ومُلح العوَّام فلها بناؤها اللغوي الخاص بها الذي يجعل العوَّام يستطيبون سماعها بسببه، بحيث لو عمد عامد إلى إخراجها في غير ذلك البناء لذهب استطابة العامَّة إياها.

فالجاحظ يرى ضرورة مراعاة أن تأتي النادرةُ أو المُلحةُ الصادرة عن العوام على لحنها، فهي في الأصل موجّهةٌ إلى طبقةٍ معينةٍ من المخاطَبين، يفهمون النادرةَ على لحنها ويستملحونها لذلك. فالجاحظ يؤكد على مسألة أنْ يأتي النصُّ (النادرةُ)، أو أيُّ نصٍّ كان موافقاً لطبقة متلقيه الثقافية والاجتماعية والسياسية وتكون الطبقة العمرية من ضمن المحددات المهمة كذلك. وجاء في كتاب عيون الأخبار شبيهٌ بما سبق قولُ ابن قتيبة: ((وكذلك اللحنُ إنْ مرَّ بك في حديث النوادر فلا يذهبنَّ عليك أنّا تعمدناه وأردنا منك أن تتعمده لأنَّ الإعراب ربما سلب بعض الحديث حُسْنَهُ وشاطرَ النادرة حلاوتها)) [80] فابن قتيبة شأنَه شأنَ الجاحظ وغيره من أدباء العربية وعلمائها، وجدوا أنَّ الإبقاء على لحن النادرة والمُلحة أجدى لاستملاحها واستطابتها من قِبل طبقةٍ معينة من المُخاطَبين.

لذلك قال غيرُ الجاحظ مثلَ قوله: ((وللفظ السخيف موضعٌ آخر لا يجوز أنْ يُستعمل فيه غيره، وهو حكاية النوادر والمضاحك وألفاظ السخفاء، فإنَّه متى حكاها الإنسانُ على غير ما قالوه، خرجت عن معنى ما أُريد بها وَبَرَدتْ عند مستمعها، وإذا حكاها كما سمعها وعلى لفظ قائلها، وقعت موقعها وبلغت غاية ما أُريد بها، ولم يكن على حاكيها عيبٌ في سخافة لفظها)). [81] ونجد الجاحظ يقول: ((إلا أنّي أزعم أنّ سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني. وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ، والشريف الكريم من المعاني. كما أن النادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من النادرة الحارة جداً)).[82]

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (6)
IJESA
June 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (6)

وقد يتبين أثر المُخاطَب في صناعة الكلام من خلال الحضور الافتراضي للمُخاطَب في ذهن المتكلم، هذا الحضور الذي يجعل المتكلم أو صاحب النص يلجأ إلى استراتيجية تمنع المُخاطب من الشعور بالملل تتجسَّد بالمجيء ببعض ما ينشطه من المضحكات أو الهزل، وهذا يبرر خروج بعض الأدباء القدماء من الباب الذي هو فيه من أجل التخفيف عن المتلقي أو المُخاطَب. وقد يأتي بشيء من الهزل وهو في معرض الحديث عن الجدّ، أو الموضوعات الجادة، وهذا يعني أنَّ الحضور الافتراضي للمتلقي أو المخاطَب في ذهن المتكلم أو المنشئ أو صاحب النص هو الذي دعاه إلى مثل هذا الإجراء أو الاستراتيجية (الفنية). وهذا ما يشير إليه الجاحظ بقوله: ((وليس هذا الباب مما يدخل في باب البيان والتبيين، ولكن قد يجري السببُ فيُجري معه بقدر ما يكون تنشيطاً لقارئ الكتاب، لأنَّ خروجه من الباب إذا طال لبعض العلم، كان ذلك أروح على قلبه، وأزيد في نشاطه)) [83]، ومن أوضح آراء الجاحظ حول تأثير المتلقي أو المُخاطَب وحضوره في ذهن صاحب الكلام أو صانعه أو المؤلف، قولُهُ: ((وجه التدبير في الكتاب إذا طال، أن يُداوي مؤلّفه نشاط القارئ له، ويسوقه إلى حظّه بالاحتيال عليه، فمن ذلك أنْ يُخرِجهُ من شيء إلى شيء ومن باب إلى باب))، [84] فتأثير المُخاطَبِ واضح من خلال حضوره الدائم في ذهن المنشئ أو صاحب النص أو المؤلّف.

وكذلك الحال نجدها في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة فقد جاء فيه: ((ولم أُخله مع ذلك من نادرة طريفة وفطنة لطيفة وكلمة مُعجبة وأخرى مُضحكة (...) لأُروِّحَ بذلك عن القارئ من كدِّ الجدِّ وإتعاب الحقِّ، فإنَّ الأذن مجاجة وللنفس حَمْضَةٌ)) [85] فابن قتيبة يتوقع من القارئ الملَّ إنْ جاء كتابه محافظاً على وتيرة الجد، لذلك فهو يلجأ مراعاة لقارئه إلى اتباع استراتيجية التنشيط عن طريق الهزل.

أمّا أبو العباس المبرد فقد ذكر في كتابه الكامل قولَهُ: ((نذكُرُ في هذا الباب من كلِّ شيءٍ شيئاً لتكون فيه استراحةٌ للقارئ وانتقالٌ ينفي الملَّ لحُسنِ موقع الاستطراف، ونخلطُ ما فيه من الجِدِّ بشيءٍ يسيرٍ من الهزل ليستريحَ إليه القلبُ وتسكُنَ إليه النفسُ)) [86] وقال في موضع آخر من الكامل: ((وهذا بابٌ اشترطنا أنْ نخرُجَ فيه من حزْن إلى سهلٍ ومن جدٍّ إلى هزلٍ. ليستريحَ إليه القاريءُ. ويدفعَ عن مستمعه الملالَ))، [87] وبهذا يتضح أثرُ المخاطَب في صياغة الكلام أشد الوضوح .

المُخاطَب الطفلُ

ولم يهمل علماء العربية القدماء الإشارة إلى المُخاطَب عندما لا يكون ضمن فئة الناس الناضجين، وأقصدُ به هنا الطفلَ فقد اشترطوا على مَنْ يخاطبه أنْ يتنازل عن ما لديه من معرفة بالعربية، وأنْ يترك فصاحته، ويختار لغةً بسيطة يفهمُها الطفلُ ليتجاوب مع مَنْ يُخاطِبُهُ، ويتقبَّلُ منه ما يقولُهُ له.

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (6)
IJESA
June 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (6)

وقد أكّد الجاحظ علوَّ مقام الفصاحة وأهلِها عنده بقوله: ((وأنا أقول: إنَّه ليس في الأرض كلامٌ هو أمتَعُ ولا آنقُ، ولا ألذُّ في الأسماع، ولا أشدُّ اتصالاً بالعقول السليمة، ولا أفتقُ للّسان، ولا أجودُ تقويماً للبيان، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء، والعلماء البلغاء)). [88]

إلَّا أنَّهُ يرى أنَّ هناك مواضع يضطر فيها المتكلم إلى الميل عن التمسك بالحديث الذي هو أشدُّ اتصالاً بالعقول السليمة عندما يكون موجهاً إلى طبقةٍ معينةٍ من الناس. وبتعبير أرسطو فـ ((لكلِّ طبقةٍ وعادةِ أسلوبٌ ملائمٌ لها، وأقصد بالطبقة: العمرَ: رجلٌ، شيخٌ عجوز، والجنس: ذكر أو أنثى...)) [89]، وقد أشار الجاحظ إلى هذا المعنى في أكثر من موضع من مواضع كتابه البيان والتبيين، منها قوله: ((وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً، وساقطاً سوقياً، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً، إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً، فإن الوحشيّ من الكلام يفهمه الوحشيُّ من الناس، كما يفهم السوقيّ رطانة السوقيّ. وكلامُ الناس في طبقات كما أنَّ الناسَ أنفسَهم في طبقات. فمن الكلامِ الجزلُ والسخيفُ، والمليحُ والحَسَنُ، والقبيحُ والسَّمِجُ، والخفيفُ والثقيلُ، وكلُّه عربيٌّ، وبكلّ قد تكلموا، وبكلّ قد تمادحوا وتعايبوا)). [90]

وأكَّد الجاحظ هذا الرأيَ في موضع آخر من مؤلفاته بقوله: ((وقد قالوا: الصبيُّ عن الصبي أفهم وبه أشكلُ. وكذلك الغافلُ والغافل والأحمقُ والأحمق والغبيّ والغبيّ والمرأة والمرأة. قال تبارك وتعالى: (ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً) لأنَّ الناس عن الناس أفهم وإليهم أسكن. فمما أعان الله تعالى به الصبيان، أنْ قرَّبَ طبائعَهم ومقاديرَ عقولِهم من مقاديرِ عُقُولِ المعلمين. وسمع الحجَّاجُ - وهو يسير - كلام امرأة من دار قومٍ، فيه تخليط وهذيان، فقال: مجنونة، أو ترقص صبياً! ألا ترى أن أبلغ الناس لساناً، وأجودهم بياناً وأدقهم فطنة، وأبعدهم روية، لو ناطق طفلاً أو ناغى صبياً، لتوخى حكاية مقادير عقول الصبيان، والشبه لمخارج كلامهم، وكان لا يجد بُدّاً من أن ينصرف عن كلِّ ما فضَّلَهُ الله به بالمعرفة الشريفة، والألفاظ الكريمة. وكذلك تكون المشاكلة بين المتفقين في الصناعات)) [91] فـ ((الشيء لا يحنُّ إلّا إلى ما يُشاكله)) [92]، ونجد الجاحظ يوصي فئة المعلمين بوصايا تُعينهم في تعاملهم مع الصبيان فقد قال: ((وأذقه حلاوة الاختصار وراحة الكفاية وحذره التكلّف واستكراه العبارة، فإنَّ أكرم ذلك ما كان إفهاماً للسامع ولا يحوج إلى التأويل والتَّعقُّب ويكون مقصوراً على معناه لا مُقصِراً عنه ولا فاضلاً عليه. فاخترْ من المعاني ما لم يكن مستوراً باللفظ المتعقِّد، مُغرِقاً في الإكثار والتكلّف، فما أكثر مَنْ لا يحفل باستهلاك المعنى مع براعة اللفظ وغموضه على السامع بعد أن يتسق له القول وما زال المعنى محجوباً لم تكشف عنه العبارة. فالمعنى بعدُ مقيمٌ على استخفافه وصارت العبارة لغواً وظرفاً خالياً)) [93]، فالجاحظ حريصٌ أشدَّ الحرص على أنْ يكون اللَّفظُ سهلاً ومعنى العبارة واضحاً بعيداً عن الاستغلاق. وهذا ما أكده على لسان بشر بن المعتمر بقوله: ((وإيَّاك والتوعُّرَ فإنَّ التوعُّرَ يُسلمك إلى

التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك)) [94]، ويُلاحظ أنَّ هذا الموقف الذي يتخذه الجاحظ من المعنى المستغلق ويرجح عليه المعنى السهل إنّما هو امتداد لنظريته العامة في البيان بشكل عام، فمما أوردَهُ الجاحظُ في الصّحيفةِ المعروفةِ بصحيفة بِشر بن المُعتَمِر: ((ويكون معناكَ ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً، إمَّا عند الخاصَّة إنْ كنتَ للخاصَّةِ قصدتَ، وإمَّا عند العامة إنْ كنتَ للعامة أردتَ)) [95] فالخط البياني العام لنظرية الجاحظ البيانية هو أنْ يكون المعنى ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً سواءٌ كان المُخاطَبُ من الخاصة أو من العامّة. كما أنَّ الجاحظ يؤكد على المتكلم أنْ لا يفصل بين أقدار المعاني وبين أقدار المستمعين [96]، هذا لما كان المستمعون أو المُخاطَبون بالغين مُدركين، فكيف الحال لو كان المتكلمُ يخاطبُ طفلاً؟

فيرى الجاحظ وجوب أنْ يتصف الخطاب الموجَّه غلى الأطفال بالوضوح وبساطة اللغة من حيث المفردات والتراكيب، والوضوح والبساطة لا تعني البدائية أو السذاجة إطلاقاً، فالجملة القصيرة أشدُّ قرباً من الطفل، لأنّ الطفلَ يريد من الجملة نتيجة سريعة، ويريد من تراكيبها أن تكون واضحة، لأنَّه لا يُحمِّل نفسَه مشقَّة الاستنتاج، ويفضلُ أنْ يتسلم النتائج جاهزة، في كثير من الأحيان، يجب علينا أن لا نجعل الطفل يقف محتاراً أمام الكلمات والتراكيب ليسأل نفسه عن معانيها، ومَنْ يضمن لنا أنْ يتساءل الأطفال ذلك التساؤل؟ [97]

الخاتمة

اتَّضح من خلال مسار البحث أنَّ هناك أثراً واضحاً للمُخاطب في صناعة الكلام، كما بيّن ذلك العلماء العرب القدماء المهتمون بالبيان، وقد توسّعوا في مفهوم الكلام فقد شمل لديهم المنظوم والمنثور بمختلف فنونه، وسواء كان الكلام مسموعاً أو مكتوباً مقروئاً.

وقد وقفنا عند الكلام وصناعته من قبل المتكلم عندما يكون المتكلم سُلطاناً، وكيف له أنْ يصوغ كلامه إذا كان المُخاطَب من الرعية، أو من العمال؟ وكيف يكون خطابُهُ إيَّاهم عندما يكون في موقع الأمر والحزم. أمَّا عندما يكون السلطانُ مُخاطَباً فقد أشاروا على من يكون في منزلة المتكلم أمامه أن يُجاريه في لحنه ولا يُعرب في حضرته إن هو لَحَنَ، وفي هذا تلميحٌ إلى ما يمكن أن يتصف به السلطان من تسلطٍ وغطرسة.

ووقفنا عند آراء العلماء العرب القدماء حول المتكلم، متى يطنب ومتى يوجز باعتبار المخُاطب إنْ كان من العامة أو من الخاصة، وباعتبار المستوى الثقافي للمخاطب.

كما تضمن البحث على وقوفه عند آراء العلماء العرب القدماء حول المتكلم وكيف يصنع الكلام عندما يكون المخاطَبُ نبيهاَ وكذلك عندما يكون المخاطَب عكس ذلك يتصف بالغفلة، وهو ما تبين من خلال الإشارة إلى بعض من ألّفوا كُتُبَهُم متوجهين بها إلى القارئ المفترض بوصفه مخاطباً، فمنهم من ألّفها متسمَّةً باليُسرِ ومنهم من ألّفها متسمة بالاستغلاق إلّا على أصحاب الأذهان المتقدة، مراعياً مستوى المخاطَب.

كما تضمن البحث اهتمام العلماء العرب القدماء بالطفل بوصفه مُخاطَباً يحتاج مستوى معيناً من الخطاب يختلف عن ذلك الذي يمكن يُستعمل مع البالغين من الناس. وقد عالج العرب هذا الجانب بشكل يوافق ما جاءت به الدراسات الحديثة التي اهتمت بالطفل ومستوى الخطابِ الملائم له.

الهوامش

(1) لسان العرب: مادة اثر ج4 ص 5 طبعة صادر.

(2) لسان العرب: ج 8 ص 208 وما بعدها ، دار صادر.

(3) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص 3.

(4) إحكام صنعة الكلام، محمد بن عبد الغفور الكلاعي ص95.

(5) كتاب الصناعتين، ص 167.

(6) كتاب الصناعتين، ص142.

(7) الإمتاع والمؤانسة، ج 2، ص 132.

(8) أسرار البلاغة، ص 3-5.

(9) أسرار البلاغة، ص 3-5.

(10) دلائل الإعجاز، ص49.

(11) مواد البيان، علي بن خلف، ص82.

(12) كتاب الصناعتين ص145.

(13) الحيوان، ج 3، ص131-132.

(14) البيان والتبيين، ج1، ص139، تحقيق: عبد السلام محمد هارون.

(15) البيان والتبيين، ج1، ص141، تحقيق: عبد السلام محمد هارون.

(16) كتاب الصناعتين، ص139.

(17) كتاب الصناعتين، ص139

(18) كتاب الصناعتين، ص147.

(19) مثالب الوزيرين (أخلاق الصاحب بن عباد وابن العميد)، ص 6.

(20) نقد النثر، ص 82- 83. وينظر: البرهان في وجوه البيان لابن وهب، ص150.

(21) كتاب الصناعتين، ص 29-30 .

(22) كتاب الصناعتين، ص 26.

(23) المثل السائر، ج 1، ص 7.

(24) ينظر مقدمة ابن خلدون، ج 2، الفصل السابع والخمسون، ص 405 وما بعدها.

(25) أبجد العلوم، ج1، ص301.

(26) طبقات فحول الشعراء، الجمحي، ت 231 هـ، ص26-27.

(27) صبح الأعشى، ج6، ص276.

(28) صبح الأعشى، ج6، ص276.

(29) البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ص136.

(30) أدب الكاتب، ص 18.

(31) الصناعتين، ص 164 -165.

(32) صناعة الكتّاب، ص160.

(33) صبح الأعشى، ج6، ص560.

(34) الصناعتين، ص160.

(35) الصناعتين، ص160-161.

(36) الصناعتين، ص160-161 وينظر: العقد الفريد، ج1، ص306.

(37) الصناعتين، ص161-162. وينظر: العقد الفريد،ج1، ص306، وفيه: (الأقيال العباهلة والأرواع المشابيب) واختلافات أخرى غير ما ذكرناه هنا.

(38) كتاب الحيوان، تحقيق: يحيى الشامي. وينظر: كتاب الصناعتين: ص 199.

(39) إحكام صنعة الكلام، ص251.

(40) نقد النثر، ص123 راجع كتاب البرهان في وجوه البيان لابن وهب، ص205.

(41) إحكام صنعة الكلام، ص255. وينظر: البيان والتبيين، ج2، ص210 وما بعدها.

(42) نقد النثر، ص123-124، راجع البرهان في وجوه البيان لابن وهب، ص206.

(43) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، ج2، ص6.

(44) البيان والتبيين ج 1، ص116.

(45) البيان والتبيين، ج 1، ص116-117.

(46) الصناعتين، ص163.

(47) الصناعتين، ص163-164.

(48) الصناعتين، ص162.

(49) الصناعتين، ص196.

(50) الصناعتين، ص164-165 وينظر:

(51) سورة الحجر ،آية 9.

(52) إحكام صنعة الكلام، ص251-252.

(53) كتاب الصناعتين، ص 165.

(54) العقد الفريد، ج 2، ص5.

(55) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ص36.

(56) نقد النثر، ص86. وينظر: البرهان في وجوه البيان لابن وهب، ص154.

(57) نقد النثر، ص 86 وينظر: البرهان في وجوه البيان لابن وهب، ص155.

(58) جمهرة اللغة، ص 40.

(59) جمهرة اللغة، ص 40.

(60) أدب الكاتب، ص 12.

(61) أدب الكاتب، ص14.

(62) الصناعتين، ص162.

(63) الصناعتين، ص22 وبـ (قوله): يعني به ابن المقفع.

(64) الصناعتين، ص62.

(65) البيان والتبيين ج1، تحقيق: علي بو ملحم، ص 105وينظر: نقد النثر ، ص 84-85 وينظر: البرهان في وجوه البيان لابن وهب، ص153.

(66) لسان العرب، ج2، مادة (حدج)، ص231 ، طبعة صادر.

(67) البيان والتبيين، ج1، ص177، طبعة ابو ملحم. وفي طبعة عبد السلام هارون، ج1، ص203.

(68) نقد النثر، ص 84-85، وكتاب البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، ص 153.

(69) البيان والتبيين، ج1، ص101، تحقيق: (أبو ملحم).

(70) الصناعتين، ص16.

(71) عيار الشعر، محمد أحمد بن طباطبا العلوي، ص12.

(72) البيان والتبيين، ج1 ، ص92-93.

(73) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: ابو الفضل ابراهيم، ط2 ، ص 33.

(74) الصناعتين، ص35.

(75) البيان والتبيين، ج1، ص139.

(76) كتاب الحيوان، ج3، ص487 تحقيق : يحيى الشامي.

(77) الصناعتين، ص 38.

(78) الصناعتين، ص 38.

(79) البيان والتبيين، ج1، ص145-146.

(80) عيون الأخبار، ج1، ص م من المقدمة. كما أجازوا أن يأتي اللحن من الجواري وهذا ما أشار إليه الجاحظ حيث قال: ((واللحن من الجواري الظراف، ومن الكواعب النواهد، ومن الشّوابّ الملاح، ومن ذوات الخدور الغرائر أيسر. وربما استملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف)). ينظر البيان والتبيين للجاحظ ج1 ص146.

(81) نقد النثر، ص120، راجع كتاب البرهان في وجوه البيان لإبن وهب الكاتب.

(82) البيان والتبيين، ج1، ص145.

(83) البيان والتبيين، ج1، ص165، طبعة أبو ملحم.

(84) البيان والتبيين، ج3، ص

(85) عيون الأخبار، المجلد الأول، ص ل من مقدمة المؤلف.

(86) الكامل في اللغة والأدب، ج2 ، ص211.

(87) الكامل في اللغة والأدب، ج3 ، ص3.

(88) البيان والتبيين، ج1، ص145.

(89) الخطابة لأرسطو، 1980، ص210.

(90) البيان والتبيين، ج1، ص144.

(91) رسائل الجاحظ، الرسائل الأدبية، ص204- 205.

(92) البيان والتبيين، ج1، ص131، أبو ملحم و ج1، ص 138، طبعة عبد السلام هارون.

(93) رسائل الجاحظ، الرسائل الأدبية، كتابه في المعلمين، ص 206.

(94) البيان والتبيين، ج1، ص136.

(95) البيان والتبيين، ج1، ص 136.

(96) ينظر: البيان والتبيين، ج1، ص138 وما بعدها.

(97) يُنظر: أدب الأطفال – فلسفته. فنونه. وسائطه، د. هادي نعمان الهيتي، ص99.

المصادر

- أبجد العلوم، ج1، تأليف: صدّيق حسن القنوجي، أعده للطبع ووضع فهارسه: عبد الجبار زكار، دمشق 1978
- إحكام صنعة الكلام لأبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الأشبيلي الأندلسي، ص95، تحقيق: محمد رضوان الدّاية، دار الثقافة، بيروت – لبنان.
- أدب الأطفال – فلسفته. فنونه. وسائطه، د. هادي نعمان الهيتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة بالاشتراك مع دار الشؤون الثقافية العامة –بغداد،1977.
- أدب الكاتب، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدّينوري، (ت 276 هـ)، شرح: الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
- أسرار البلاغة، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي المتوفى سنة 471 هـ أو سنة 474 هـ، قدمه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر ، دار المدى بجدة.
- الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبط هوامشه: أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة.
- البيان والتبيين،ج1، ج2، تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون.
- البيان والتبيين ج1، تحقيق: علي بو ملحم.
- البرهان في وجوه البيان، تأليف أبي الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تحقيق: الدكتور جفني محمد شرف، مكتبة الشباب.
- جمهرة اللغة، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد، (ت سنة 321 هـ)، تحقيق د. رمزي منير بعلبكي، ج1، دار العلم للملايين، ط1، 1987.

- الخطابة لأرسطو، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار الرشيد للكتب، بغداد، 1980.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي المتوفى سنة 471 هـ أو سنة 474 هـ، قدمه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر.
- رسائل الجاحظ، الرسائل الأدبية، قدم لها وشرحها: د. علي أبو ملحم، منشورات دار ومكتبة الهلال، ط3، 1995.
- صبح الأعشى، تأليف أبي العباس أحمد القلقشندي، ج1، دار الكتب المصرية بالقاهرة 1922، ج6، دار الكتب الخديوية، 1915.
- صناعة الكتّاب، لأبي جعفر أحمد بن اسماعيل النحاس، تحقيق دكتور بدر أحمد ضيف، دار العلوم العربية، بيروت – لبنان، ط1، 1990.
- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي ت 231 هـ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
- عيار الشعر، محمد أحمد بن طباطبا العلوي، شرح وتحقيق: عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط2، 2005.
- عيون الأخبار، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ت 276 هـ المجلد الأول، ص ل من مقدمة المؤلف، دار الكتاب العربي، بيروت –لبنان.
- العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت 328هـ)، ج1، ج2، تحقيق: دكتور مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ط1، 1983.
- الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، علق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج2، ج3،الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي، 1997.
- كتابُ الحيوان، ج 3، تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون.
- كتاب الحيوان، ج3، تحقيق: يحيى الشامي.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة، المجلد الأول، دار إحياء التراث العربي.
- لسان العرب، ج2، مادة (حدج)، ص231 ، طبعة صادر.
- مثالب الوزيرين (أخلاق الصاحب بن عباد وابن العميد لأبي حيان التوحيدي، تحقيق: د. ابراهيم الكيلاني، طبعة دار الفكر بدمشق، 1961.

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير (ت 637 هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الجزء الأول، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1939.
- مقدمة ابن خلدون، الجزء الثاني، عبد الرحمن بن محمد (808 هـ)، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش.
- مواد البيان، علي بن خلف، توفي بعد عام 437 هـ، تحقيق: حاتم الضامن.
- نقد النثر، تأليف أبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، تحقيق د. طه حسين، وعبد الحميد العبادي، مطبعة دار الكتب المصرية، 1933.